عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

١ «العَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ،

٢ أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَأَقْعَدَاهُ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟

٣ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا،

٤ وَأَمَّا الكَافِرُ - أَوِ المُنَافِقُ - فَيَقُولُ: لا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ،

٥ فَيُقَالُ: لا دَرَيْتَ وَلا تَلَيْتَ،

٦ ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ»[١٣٤].

(١٣٤) رواه البخاريُّ (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠).

آيات

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]

الراوي

هو: أبو حمزةَ، أنسُ بنُ مالكِ بنِ النضرِ الأنصاريُّ، الإمامُ، المفتي، المقرئ، المحدِّث، راوية الإسلام، خدم النبي ﷺ عشر سنين؛ ودعا له النبي ﷺ بالبركة، فبارك الله له في ولده وفي ماله وفي عمره؛ فكان من آخر الصحابة موتاً، وغزا معه غَيْرَ مَرَّةٍ، وبايَع تحتَ الشجرة. تُوفِّي سنةَ: (٩٣هـ)[١].

خلاصة

يذكر النبيُّ ﷺ سؤال المَلَكين في القبر؛ فإن العبدَ يُسألُ عن نبيِّه ﷺ، فإن كان مؤمنًا رأى مقعده من الجنَّة وفُسِحَ له في قبره، وإن كان كافرًا رأى مقعده من النار، وعُذِّب في قبره حتى تقوم الساعة.

(١) تراجع ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» للذهبيِّ (٤/ ٤١٧-٤٢٣)، «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ٢٣١)، «معجم الصحابة» للبغويِّ (١/ ٤٣)، «أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ١٥١-١٥٣).

١ يُحَدِّثُ النبيُّ ﷺ أصحابه بأمرٍ من أمور الغيب، وهو سؤال القبر ونعيمه وعذابه، فيذكر ﷺ أنَّ المَيْتَ إذا وُضع في قبره وانصرف عنه أهله تُرَدُّ إليه رُوحُه ويحيى حياة خاصة، تسمى بالحياة البرزخية حتى إنه ليسمع صوت نعالهم وضربها الأرض إذا انصرفوا عنه.

٢ ثم يأتيه مَلَكان، وهما مُنْكَرٌ ونكير، فيُجلسانه ثم يسألانه عن رسول الله ﷺ ما يقول فيه؟ هل آمن به وصدَّقه وعَمِل بشرعه أمَّ كفر به واستهزأ بدينه؟

وقد ورد في السُّنَّة الصحيحة أنَّ العبدَ يُسألُ عن ربِّه ودينه وعن النبيِّ ﷺ[١٣٥]، فاكتفى في هذا الحديث بذكر النبيِّ ﷺ؛ فإن الإيمان بالنبي ﷺ يستلزم الإيمان بالله، واتخاذ الإسلام ديناً.

٣ فإذا كان العبدُ مؤمنًا أجاب بأنَّ محمدٌ رسولُ الله ﷺ، وأنه آمن به واتَّبع شرعه، فتُبشِّره الملائكةُ بالجنَّة، وتُريه مقعده من النار الذي أعدَّه الله له إن كان مات على الكفر، ثم تُريه مقعده في الجنة، الذي أعده الله له بعد صدق جوابه وحسن إيمانه؛ فيُسَرُّ بذلك، ويُفسح له في قبره.

٤ وإن كان الميت كافرًا أو منافقًا وسأله الملكان فإنه يقول: لا أدري، كنت أقولُ كما يقول الناس، فالكافر كان يقول بقول الكافرين: ساحرٌ وشاعرٌ وكذَّابٌ ومجنونٌ ونحو ذلك، والمنافق كان يقول بقول المؤمنين إلا أنه كان يقول بلسانه ولا يعتقد ما يقوله بقلبه ولا يؤمن به.

٥ فيجيبه المَلَكان بالدعاء عليه، فيقولان: **لا عَرَفتَ ولا اتَّبَعْتَ مَن يعرف، ولا انتفعت بالقرآن الذي قرأتَه أو سمعتَه**، وذلك أنه لم يكلف نفسه عناءَ البحث والقراءة.

٦ ثم يُضرب على رأسه بمطرقة من حديد ضربةً قويَّةً يصرخ منها صرخةً مُدَوِّيَةً، يسمعها كل الخلائق من البهائم، إلا الإنس والجن؛ رأفةً بهم؛ فإنهم لو سمعوا ذلك الصوت، لفسدت عليهم حياتهم، ففي الحديث عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ»[١٣٦].

ولأنهم لو سمعوا ذلك الصوت لصار العبادُ مجبورين على الطاعة والامتناع عن المعصية، وذلك منافٍ لمقصود الابتلاء[١٣٧].

(١٣٥) رواه أبو داود (٤٧٥٣)، عن البراء بن عازب رضي الله عنه وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٣٩٨).

(١٣٦) رواه مسلم (٢٨٦٧).

(١٣٧) «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» للعينيِّ (٨/ ١٤٥).

١ عذاب القبر وسؤال الملكين حقٌّ ثابتٌ بالقرآن والسُّنَّة[١٣٨]، فعلى المسلم أن يؤمن بذلك ولا يُكَذِّب به وإن عجز عقلُه عن إدراكه.

٢ يلزم من الإيمان بعذاب القبر وسؤال المَلكين: الاستعداد لذلك اليوم، والتهيؤ للجواب، والمسارعة بالأعمال الصالحة والطاعات التي تنفع العبدَ، وتشفع له وتُثَبِّته عند السؤال.

٣ النجاة من القبر بشرى بالنجاة يوم القيامة، فمن نجى في هذه المرحلة كان ما بعدها يسيراً عليه.

٤ لا يجيب الإنسان في القبر إلا بما وقر في قلبه، فالمنافق كان يردد الشهادة بكون محمد ﷺ رسول الله، إلا أنه لا يجيب عن السؤال لأن قلبه كان فيه نفاق وخبث.

٥ ليس بعاقلٍ من فرَّط في جَنَّةٍ عرضها السماوات والأرض، وعرَّض نفسه لعذاب القبرِ ثم الخلودِ في النارِ أبدًا، نظير الاستمتاع في الدنيا أيامًا أو سنينَ يسيرة.

٦ الاستعداد لسؤال القبر والاستعاذه بالله من عذابه واجب على المسلمين ولهذا كان النبيُّ ﷺ يستعيذ بالله منه في كلِّ صلاة قبل السَّلام[١٣٩]، فينبغي أن نحرص على تلك السُّنَّة.

٧ في الحديث دلالة واضحة على أن الجنة والنار موجودتين الآن، بدليل أن المؤمن يرى مقعده من الجنة والنار.

قال الشاعر:

فَيَا مَنْ هُوَ القُدُّوسُ لا رَبَّ غَيْرُهُ ... تَبَارَكْتَ أَنْتَ اللهُ لِلْخَلْقِ مَرْجِعُ
وَيَا مَنْ عَلَى العَرْشِ ... تَبَارَكْتَ تُعْطِي مَنْ تَشَاءُ وَتَمْنَعُ
بِأَسْمَائِكَ الحُسْنَى وَأَوْصَافِكَ العُلَى ... تَوَسَّلَ عَبْدٌ بَائِسٌ يَتَضَرَّعُ
أَعِنِّي عَلَى المَوْتِ المَرِيرَةِ كَأْسُهُ ... إِذَا الرُّوحُ مِنْ بَيْنِ الجَوانِحِ تُنْزَعُ
وَكُنْ مُؤْنِسِي فِي ظُلْمَةِ القَبْرِ عِنْدَمَا ... يُرَكَّمُ مَنْ فَوْقِي التُّرَابُ وَأُودَعُ
وَثَبِّتْ جَنَانِي لِلسُّؤَالِ وَحُجَّتِي ... إِذَا قِيلَ: مَنْ رَبٌّ؟ وَمَنْ كُنْتَ تَتْبَعُ؟

(١٣٨) قال ابن القطان في «الإقناع في مسائل الإجماع» (١/ ٥٠): «أجمع أهل الإسلام من أهل السنة على أن عذاب القبر حق، وعلى أن منكرًا ونكيرًا ملكي القبر حق، وعلى أن الناس يفتنون في قبورهم بعدما يحيون فيها».

(١٣٩) متفق عليه، رواه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨)، عن أبي هريرة ﷺ.